قبلة على الخليج

أحب الصيد، أحبه لدرجة أنني أقضي ليلي مع نهاري على الخليج، فأكون بصحبته حكايات شتى تجمع ساعات متناقضة ما بين قرية السعادة ومدينة الشقاء، تماما كأمواج البحر المتلاطمة أمامي فهي تتناقض مع بعضها من خلال تعاركها الغبي، فتترك في قلبي صدى له معنى خاص بي لا يشاركني أحد في فهمه سوى صنارتي هذه، والتي مهما حاول الزمان أن يفرق بيننا حتما ستبوء جميع محاولاته بالفشل.

رحلتي اليومية مع الصيد شكلت عندي معرفة تامة عما يجري على الخليج، أعرف الآيب والقادم، الزائر والمقيم، مسقط الأتراح وجالب الأفراح، وغيرهم الكثير باستثناء العشاق، فعندهم يتوقف عداد الفهم عندي بالعد، ففي عيونهم رموزا يتخاطبون بها لا أقدر على فهمها، فهم الوحيدون الذين يثيرون عاصفة صخبي، فهلموا لي يا أهل الهوى بعقل عاشق يعينني على فهمكم!

في الخليج يحلو اللقاء للعشاق، فهم يأتون بشكل شبه يومي للخليج لصقل عشقهم على رمال شاطئه، وقد كانت خيوط التعقيد تسبك حول العاشقين عصام ونورة. فقد احتلا أعلى مراتب عدم الفهم عندي، ولم أستطع تحليل شخصيتهما بالرغم من براعتي في هذا المجال، إلا أنني وجدت فيهما شيئا غريبا لا يوجد بين أي اثنين على الإطلاق، حينما يشبكان يديهما معا كعش صغير تتبع قوة حبهما من عينيهما، وتفيضان على دنيا العشق بزمزم عذب، كانا يشدان أيديهما بقوة لدرجة أنني حسبتهما ستفلتان من ذراعيهما وتهربان بعيدا مع أمواج البحر الصاخبة، كانا يلتقيان دائما قبيل المغيب، لقد كان منظر الغروب عند لقائهما يشبه حبهما، وعندما تسقط شمس الأصيل أشعتها الذهبية على سطح البحر يزداد الشفق احمرارا لا لظاهرة طبيعية سيطرت عليه إنما خجلا من قبلة قد أحدثت للتو وما تزال تنعم بدفء عاشقين مولهين بحب بعضيهما.

كنت أتمنى ألا يدفعني فضولي الزائد للتسلل إليهما وأختلس السمع لحديثهما فأكون قد قللت من احترامي لذاتي، لكن لعنة الفضول قد فصلت الذات والاحترام عن بعضيهما ولم تسعفني أمنيتي في تمالك نفسي كيلا أتصنت على حديثهما، سرعان ما وجدت نفسي مع صنارتي بالقرب منهما، تظاهرت بالصيد وأذناي مرميتان على أرصفة شفاههما ، فلم يعد لأذني أي علاقة برأسي سوى تلك السيالات العصبية التي تمدني بفهم ما أسمع من كلام العشق، لقد كانا يقسمان ألا يبتعدان عن بعضيهما نهائيا ومهما شكل الزمن أمامهما من عوائق. لا أدري لماذا شددت قبضتي على صنارتي عندما سمعت أيمانهما مع إني أعجبت كثيرا بحرصهما على عشقهما لهذه الدرجة.

ما يزال تناقض أمواج البحر المتجسد في التلاطم العشوائي يؤثر على الحالة النفسية للعاشقين عصام ونورة. دموع مريرة تنساب على وجنتي كل واحد منهما مجرد ما مر هاجس الفراق من خلفهما، ولحظات سعيدة تصحبها ضحكات بريئة عندما يمر هاجس البقاء أمامهما. تماما كضحكات الخليج حينما يزداد عدد زواره من العشاق، تكاد شمس الأصيل أن تأفل وهنا لا يوجد إلا العاشق عصام، "لكن أين نورة؟!" سألت مستودع أجوبتي بتعجب لكنه لم يجبني، فأغلقته للأبد وتوجهت لمستودع التخمين، لعلها ستتأخر لظرف ما قد ألم بها، أو ربما أنها تريد أن تشغل قلب عصام عليها قليلا، لترى وهج العشق وهو يسطع في شمسي عينيه. استمر تفكيري في تخمين أسباب غياب نورة غير المعتاد، فلا يعقل أنها لن تاتي وخصوصا أن كل لحظة تجمعها مع عصام تضيف لعمرها يوما جديدا فلا أعتقد أنها ستبخل على نفسها المزيد من الحياة، حتى قطع تفكيري ذلك الصراخ، يا لهول ما أرى، إنها فتاة تغرق وتستنجد بحرقة، هممت للركض إليها لنجدتها، لكن عصام سبقني لذلك، فلم يكن على الخليج في هذا الوقت سوى ثلاثتنا، تراجعت بخطواتي قليلا للوراء، وازدادت قهقرتي كلما اقترب عصام مع الفتاة التي أنقذها إلى الشاطئ، وضعها على رمال الخليج برفق فانسدل شعرها الذهبي على الرمال مشكلا صورة فنية

رائعة، لم تستطع الفتاة الغريقة الحراك، فقد كان مغشيا عليها، وحاول عصام إسعافها وإخراج السوائل من رئتيها لكنها لم تستجب لهذا النوع من الإسعاف، لذا لم يبق هناك سوى طريقة واحدة لإنقاذ هذه الجميلة من سجن الموت، فبقبلة عميقة سينقذها، أقصد بنفخة واحدة سينقذها، فلا بد أن يجري عصام لها تنفسا صناعيا وأخاله انه بدأ بتنفيذ الواجب الإنساني حالا، وهاهي أنفاس عصام تدب الحياة في جسد العريقة، وبدأ قلبها ينبض من جديد، وبدأ نبضها يسير بشكل طبيعي لتصافح الحياة مرة أخرى، بينما كانت الحياة نفسها تريد أن تبعد عن فتاة أخرى وتطردها منها نهائيا، فقد جاءت نورة للتو وقد رأت بأم عينها عشيقها عصام وهي يقبل فتاة أخرى على رمال الخليج التي نسجوا عليها أجمل قصص عشقهما، فأقفلت تاركة وراءها قلبا بريئا لا يعي ما يجري له، حينئذ بدأت أمواج البحر تتلاطم بقوة، وكأنها تتأسف على القادم.

يوم ويومين وتتزايد الأيام وعصام وحده على الشاطئ، ولا أثر لنوره! قصد الذهاب لبيتها ليعلم الحكاية، فركضت بكامل قواي إليه، وفي منتصف الطريق حدثته بالحكاية فأكمل طريقه وكأن عقله قد طار من رأسه فغدا كالمجنون، وصل بيتها ولم يجدها فضرب الأرض بقدميه وتوقف مع ذاته لبرهة محاولا أن يخمن مكانها في هذه اللحظات، فانطلق شعاع من قلبه ليدله على مكانها حيث أنها ذهبت إلى الشاطئ للتو، بالفعل قد جاءت للشاطئ لذلك غادرت المكان لأخلي لهما جو الصلح وقصدت المدينة لشراء بعض مستلزمات الصيد، وكنت مشغولا برسم موقف الصلح الذي سيعيد العاشقين لدائرة حبهما من جديد، وقد لونته بأبهى الألوان، لذا فرغت من حاجتي بأسرع وقت وعمدت إلى الشاطئ لعلي أسمع همسات العشق وهي تترنم في فضاء الجمال من جديد، لكن قبل وصولي الشاطئ بقليل وجدت عصام عائد إلى بيته فقطعت عليه طريقه متعجبا من حالته التي بدا عليها، فربما أن سحرا قد دب في أحشائه ليغيره لحالته السيئة هذه، فقد خطفت عيناه قبسا من نار الشفق وأصبحتا حمراوين

داميتين، كفاه تتقلبان على بعضيهما كثكلى فجعت بابنها للتو، خشيت أن أسأله عما دهاه، لكن الذهول الذي اكتنفني قد احتل مكان لساني وسأله نيابة عني قائلا: " ما الذي جرى لك"، فقال لي وقلبه يعتصر ألما " بقبلة على الخليج أحييت انسانة، وقتلت أخرى بالقبلة نفسها" صعقت بما أجاب وقلت له بانفعال" لكنك لم تقبل تلك الغريقة، أنت أنقذتها"، فابتسم لي بلطف وقال وهو يسير نحو طريق العودة" لكني قد قبلتها في نظر نورة وهذا ما يهمني في الموضوع نظرة نورة" حدقت فيه كالأبله ورجوته بعيني أن يفصح عما حدث، فتبين لي أن نورة ستتزوج الليلة من ابن عمها الذي كان متلهفا للزواج منها منذ سنين، وقد تحقق مرامه دون أن ينبض ذرة عشق واحدة على الخليج، ملتقى العشاق.

... بعد ذلك نفضت ما بيدي من مستلزمات الصيد، وصوبت وجهتي نحو البيت وأنا عازم على ترك الصيد واعتزال الخليج.

النهاية